

# مجلة الهلال

سبتمبر 1995

صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية المصرية

من مارس 1907 إلى مارس 1909

أحمد لطفى السيد، الأب الروحي لليبرالية المصرية

بقلم : د. رعوف عباس

رغم خطورة الدور الذى لعبه احمد لطفى السيد (أستاذ الجيل) فى الحياة السياسية المصرية، وفى تطور الفكر المصرى الحديث منذ مطلع القرن حتى منتصفه، فان ما نشر من أعماله قليل لا يتكافأ مع حجم دوره فى السياسية وفى ريادة الفكر الليبرالى فى مصر، وخاصة ما اتصل بالكتابات السياسية. ولولا المحاولات التى بذلت لتجميع بعض هذه الكتابات لضاع هذا القدر أيضاً ما جاد به قلم أستاذ الجيل. من تلك المحاولات الكتاب الذى نشر فى جزعين بعنوان "المنتخبات" والذى ظهر الجزء الأول منه عام 1937، والجزء الثانى بعد ذلك التاريخ بثمانى سنوات عام 1945 ومنها أيضاً الكتاب الذى نعرض له "صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية" ونشر عام 1946.

"صفحات مطوية" يضم مقالات احمد لطفى السيد التى نشرت فى "الجريدة" الصحيفة التى عبرت عن "حزب الأمة"، والتى رأس تحريرها احمد لطفى السيد وخصص قلمه للترويج للخط السياسى للحزب الذى كان يختلف عن خط "الحزب الوطنى" بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد، فعلى حين كان "الحزب الوطنى" يتمسك بضرورة جلاء الإنجليز عن مصر وعودة البلاد إلى حظيرة الدولة العثمانية كولاية تتمتع بحكم ذاتى كامل حددته فرمانات الصادرة من السلطان لمحمد على وإسماعيل، ويطالب بإصدار دستور للبلاد يكفل للشعب قدراً من المشاركة فى إدارة أمور البلاد، كان "حزب الأمة" لا يرى أن الجلاء مطلب عاجل، ويقبل بتنظيم العلاقة مع بريطانيا فى إطار حكم ذاتى يتسع شيئاً فشيئاً حسب درجة تقدم المصريين التى تؤهلهم لحكم أنفسهم بأنفسهم، ويرون العودة إلى حظيرة الدولة العثمانية بأى صورة من الصور تفريطاً فى حق مصر التى يجب أن تكون بلداً مستقلاً استقلالاً تاماً، كما يجب أن تكون هناك "جنسية مصرية" متميزة عن الجنسية العثمانية، ولا يرون غضاضة من التدرج فى الحصول على الاستقلال خطوةً خطوة، أما عن الدستور فهم يطالبون بدستور يكفل للأعيان باعتبارهم "أصحاب المصالح الحقيقية" قدراً من المشاركة فى حكم البلاد دون المساس بالامتيازات الأجنبية ولمصالح

الأجنبية في مصر. فلا عجب أن نرى الإنجليز يصفون رجال الحزب الوطنى بالتطرف ورجال حزب الأمة بالاعتدال.

### مرحلة الوفاق

من هنا تأتي أهمية "صفحات مطوية" فهو يضم مقالات احمد لطفى السيد التى تعكس وجهة نظر "حزب الأمة" فى مرحلة من أدق مراحل الحركة الوطنية المصرية وهى مرحلة الوفاق بين الخديوى والإنجليز التى أعقبت خروج كرومر من مصر عقب حادث دنشواى، وما سببه من حرج للسياسة البريطانية، وتغطى الفترة التى تولى فيها السير ألدون جورست مهمة المعتمد البريطانى فى مصر، فعلى حين بارك "حزب الأمة" سياسة الوفاق على أمل أن تؤدى إلى تهيئة المناخ لسياسة الإصلاح التى تقود إلى الحكم الذاتى ثم الاستقلال التام تدريجياً، نغم "الحزب الوطنى" على هذه السياسة واعتبرها وسيلة لإجهاض الحركة الوطنية لصالح عملاء الإنجليز، ولذلك نجد "الحزب الوطنى" يعبئ -فى تلك الفترة- الجماهير وراءه من اجل المطالبة بالجلء والدستور، بينما كان "حزب الأمة" يدعو إلى "الاعتدال" و "التعقل"،

والحصول على ما يمكن الحصول عليه، والصبر على ما يستحيل الحصول عليه حتى يحين الوقت المناسب لذلك، وهو المحور الذى دارت حوله مقالات احمد لطفى السيد بالجريدة عندئذ، لذلك يقدم كتاب "صفحات مطوية" لمن يدرس تاريخ الحركة الوطنية فى مصر فى مطلع القرن العشرين مصدراً مهما لا غنى عنه، وخاصة أن أعداد "الجريدة" المحفوظة بدار الكتب المصرية عانت من الإهمال وصروف الدهر بالقدر الذى جعلها بعيدة عن متناول الباحثين، لذلك يسد الكتاب ثغرة مهمة فى مصادر تاريخ الفترة، وفى تاريخ الحركة السياسية على وجه الخصوص.

ويعود فضل نشر الكتاب إلى الكاتب المعروف إسماعيل مظهر الذى كان يعد من تلاميذ احمد لطفى السيد الذين ساهموا فى الترويج للفكر العلمانى فيما بين العشرينيات والأربعينيات، وقد قام إسماعيل مظهر بتجميع مقالات احمد لطفى السيد من "الجريدة" ورتبها ترتيباً يتسق مع الموضوعات التى عالجتها، وعلق -أحياناً- على حواشيتها، و قدم للكتاب بكلمة تناول فيها أهمية الكتاب باعتباره من الأعمال التى تنتسب إلى "الأدب السياسى"، ودعا إلى نشر كتابات ومذكرات زعماء الحركة الوطنية، مصطفى كامل، محمد فريد، وسعد زغلول، كما وجه الدعوة إلى احمد لطفى السيد لنشر مذكراته السياسية التى غطت الفترة من 1907 حتى 1914 وذكر أن أستاذ الجيل أعدها فى صورة مخطوط، غير أنها لم تنشر حتى اليوم، ولا نعرف أين استقر بها المطاف، فما نشر بسلسلة كتاب الهلال (1962) تحت عنوان " قصة حياتى " كان تجميعاً لأحاديث شفوية أجراها طاهر طناحى مع احمد لطفى السيد.

و"صفحات مطوية" كتاب يقع فى 280 صفحة من القطع المتوسط، وزعت فيها مقالات لطفى السيد التى نشرت فيما بين مارس 1907 ومارس 1909 على ثمانية مداخل هى : خطب سياسية واجتماعية،

الخدوي لورد كرومر أمام التاريخ، الحكم الذاتي، تطاحن المبادئ، المجالس النيابية، الوزارة، النظام السياسي. ومعظم المقالات قصيرة لا يتجاوز الصفحات الثلاث من الكتاب، مع استثناءات محدودة وخاصة ما اتصل بالخطب التي وصل بعضها إلى نحو 10 صفحات.

ويضم المدخل الأول " خطب سياسية واجتماعية " ثلاث خطب ألقاها احمد لطفى السيد بالقاهرة والإسكندرية في اجتماعات لحزب الأمة، ونشرت نصوصها بالجريدة. وقد تناول في تلك الخطب بالنقد تجاه الاعتماد في طلب الاستقلال على مساندة قوى أجنبية وخاصة الدولة العثمانية، وطالب المصريين بان يعتمدوا على أنفسهم، وان تتسع مساحة التعبير عن مختلف الآراء في الصحف وان يعملوا على كسب تأييد أحرار أوروبا والأوروبيين من أصحاب المصالح في مصر باستهجان " فكرة الجامعة الإسلامية" باعتبارها فكرة استعمارية تفقد مصر هويتها وتلقى على المصريين تهمة التعصب الديني وكره الأجانب مما ينعكس سلبياً على مساعي المصريين لنيل الاستقلال الذاتي، وطالب بتوسيع اختصاصات المجالس النيابية القائمة (مجالس المديرية، ومجلس شورى القوانين، والجمعية العمومية) كخطوة في الطريق لنيل الدستور وتحقيق " التسوية بين المصريين وبين النزلاء الأجانب في المعاملات والقوانين"، ودعا إلى نشر التعليم الحديث، والاهتمام بمشروع "الجامعة المصرية"، وان يستفيد المصريون من درس الأزمة الاقتصادية التي عانت منها البلاد عام 1907 بالعمل على إقامة بنك مصرى حتى لا يقع المصريون فريسة للبنوك الأجنبية. ودعا إلى أن يواكب السعى لنيل الحقوق السياسية العمل على "ترقية الحالة الاجتماعية والاقتصادية بنفس الحدة وبمقدار الخطى التي نخطوها في مطالبنا السياسية"، وأكد أن مصر لن تصبح للمصريين حقاً إلا إذا كان الرأي العام قويا.

وفي المدخل الثاني "الخدوي" قدم احمد لطفى السيد بعض الأحاديث التي أدلى بها الخديوى عباس حلمي الثاني لبعض مراسلى الصحف الأوروبية في مصر اثني فيها على الشعب المصرى من حيث قدرته على استيعاب "التعاليم الأوروبية" ونفى تهمة التعصب والعنوان التي كانت ترمى بها الحركة الوطنية المصرية، كما نفى عن نفسه تهمة السعى للانفراد بالسلطة لإقامة حكم استبدادى ورحب بمشاركة المصريين له في السلطة، وأشاد بالإصلاحات التي ادخلها الإنجليز على المالية والإدارة المصرية، وقد علق احمد لطفى السيد على تلك التصريحات بشئ من التحفظ، مشيراً إلى أن الأمراء عادة لا يفصحون للصحافة بما تكنه الصدور، وتوقف طويلاً عند مقولة مشاركة الشعب في السلطة بما يوحي بان الخديوى تجاهل الإشارة إلى الدستور مما لا يدعو إلى الاطمئنان. وخصص احمد لطفى السيد مقالاً للهجوم على الشاعر احمد شوقى بك (وكان يعد المتحدث الرسمى للخدوي) بسبب التصريح الذى أدلى به لبعض الصحف، وأشار فيه إلى أن "جلالة السلطان يعتبر أن أمر البرلمان المصرى من الحقوق الخاصة بسمو الخديوى". واعتبر هذا التصريح دليلاً على تمسك الخديوى بالسلطة الفردية ومحاولته إقناع الإنجليز

بتوسيع سلطاته الشخصية مقابل تأييده المطلق لسياساتهم في مصر مما يساعد على تصفية الحركة الوطنية.

ويعد المدخل الثالث "لورد كرومر أمام التاريخ" من أهم ما يتضمنه الكتاب من نصوص، ويضم خمس مقالات، تبدأ بتقييم كامل لأعمال كرومر بمناسبة رحيله عن مصر، فأشاد بكفاءته في تدعيم أسس الاحتلال البريطاني في مصر خدمةً لمصالح بلاده التي تتناقض تماماً مع مصالح المصريين، فالإصلاح الاقتصادي كان هدفة تمكين الخزانة المصرية من تسديد أقساط الديون، وبالتالي تخف ضغوط الدول الأوروبية على بريطانيا وتزداد اطمئناناً إلى ما لاحتلال مصر من فوائد لمصالحها، ولكن تلك الإصلاحات أفادت المصريين أيضاً فائدة لا ينكرها احمد لطفى السيد الذي رأى أن تلك الإصلاحات كان من الممكن أن تعم فوائدها لو صرف كرومر همته لكسب ولاء المصريين بالاهتمام بالتعليم العام والعمل على ترقيته وجعله مفيداً للأمة، ولو استعان بأكفاء المصريين في الإدارة بدلاً من الاعتماد على الأجانب، ولو عمل على إبراز الهوية المصرية، عندئذ كان باستطاعة كرومر أن يكسب صداقة المصريين وثناءهم.

### نفى تهمة التعصب

كذلك تضمن هذا المدخل نص احتفال وداع كرومر الذي أقامه أصدقاؤه من المصريين والأجانب بدار الأوبرا (4 مايو 1907) والكلمات التي ألقاها بعض كبار رجال الدولة (مثل مصطفى فهمي باشا)، ثم كلمة كرومر الشهيرة التي اثنى فيها على كل من تعاون معه، وخص مصطفى فهمي وبطرس غلى بثناء خاص، كما أبدى إعجابه بسعد زغلول وتنبأ له بمستقبل سياسي مرموق، ثم دفع عن سياسته في مصر، مؤكداً أن ما تم انجازه من إصلاح استهدف تحقيق الخير للمصريين الذين لم يقدروا جهوده، ولكنه أكد أن الجيل القادم من المصريين سوف يقدر جهوده حق قدرها " إذ المعتاد أن أولاد العميان يكونون من المبصرين". ومن الغريب أن احمد لطفى السيد نشر وقائع الاحتفال ونصوص الكلمات دون تعقيب أو تعليق، واكتفى بنشر مقالين (بعد سفر كرومر) انتقد فيهما ما جاء بتقريره عن عام 1907 الذي أشار فيه إلى تبني المصريين لفكرة الجامعة الإسلامية، وما يدل عليه ذلك من ميل المصريين إلى التعصب الديني وعدم استعدادهم للرقى، فنفى احمد لطفى السيد وجود ما يسمى بالجامعة الإسلامية أصلاً، وأكد عدم وجودها بمصر، كما نفى عن المصريين تهمة التعصب الديني التي رمى كرومر المصريين بها ليبين للرأى العام الأوروبى أن مصر لا تستحق أن تكون لها هويتها الخاصة، ولا يجب الاعتراف لها بوجود سياسى، وللمصريين بالحقوق السياسية التي تعطيهم حق المشاركة في إدارة أمور البلاد.

وفي المدخل الرابع "الحكم الذاتى" ، نجد احمد لطفى السيد يدافع عن الفكرة في عدد من المقالات، مؤكداً أن الوضع القانونى لمصر منذ محمد على هو الحكم الذاتى فلا غرابةً في المطالبة به واتهام الساعيين

للحصول عليه بطلب " فضله من الاستقلال" وطالب أستاذ الجيل بان يتم التركيز على التربية و التعليم باعتبارهما سبيل الحصول على الاستقلال بالتخلص من فوضى النظام التعليمى الذى يتوزع بين مدارس الحكومة، والكتاتيب والأزهر ومدارس الإرساليات الأجنبية، وتبنى سياسة تعليمية تهدف إلى تنشئة المصريين نشأة وطنية. فالتعليم يساعد على تكوين رأى عام يتوافر لديه قدر كاف من الوعى السياسى يساعده على نيل الدستور والاشتغال بتدبير الأمة، وطالب الأعيان بالحرص على الكرامة الوطنية لان "الأعيان هم رؤساء الأمة الطبيعيون، هم رؤساء العائلات، والأمة لا تتكون من الأفراد بل تتكون من العائلات" لذلك وجب على الأعيان أن يروضوا أنفسهم على الأخلاق الدستورية.

وفى المدخل الخاص ب "تطاحن المبادئ" عالج احمد لطفى السيد مفهوم السلطة فى مصر منذ أيام محمد على، فبين كيف كانت تلك السلطة استبدادية، وكيف كانت المجالس النيابية التى أقامها الخديوى إسماعيل مجالس صورية لا تتمتع بسلطات دستورية، ثم عرج على الوضع تحت الاحتلال، مبينا كيف أصبحت السلطة الفعلية فى يد الإنجليز امتداداً للسلطة الاستبدادية، وطالب بأن يعترف الإنجليز والخديوى (صاحب السلطة الشرعية) بان للأمة دوراً سياسياً لا بد أن تمارسه من خلال الدستور الذى يعطى ممثلى الأمة (وهم هنا أعيان البلاد) دوراً رئيسياً فى إدارة أمور البلاد، ودعا الكتاب إلى أن يوجهوا أقلامهم لخدمة هذه الغاية بدلاً من التبارى فى تأييد الخديوى أو تأييد الإنجليز وطالب بالأخذ بمبدأ المسؤولية الوزارية بحيث يكون الوزير مسئولاً أمام المجلس النيابى وليس أمام الخديوى، وحض الكتاب على أن يكون لهم فكرهم المستقل الذى لا يتأثر بالغير، و ألا يتقاعسوا عن ممارسة النقد للسلطة وللمجتمع.

وفى مدخل "المجالس النيابية" تناول الاتجاهات الرئيسية فى الحركات السياسية المصرية، فانتقد موقف الحزب الوطنى من مسألة الاستقلال العاجل (الجلاء) لان الاستقلال يقتضى أن يستعد المصريون له استعداداً كاملاً، ولا يتحقق ذلك إلا بتدريبهم على إدارة أمورهم من خلال المجالس النيابية وطالب احمد لطفى السيد بقصر حق الانتخاب على من يعرفون القراءة والكتابة ويدفعون ضريبة قدرها خمسون جنيهاً فى السنة) وكانت تلك الضريبة يدفعها من يملك ما بين 20 - 25 فدان) مؤكداً أن استمرار الإصلاح الاقتصادى والاهتمام بالتعليم سوف يؤدى إلى اتساع دائرة من يتمتعون بحق الانتخاب تدريجياً، على أن يعطى هذا الحق لأصحاب المهن الحرة كالمحامين، والأطباء، والمهندسين دون شروط. وطالب بتوسيع اختصاصات الهيئات النيابية القائمة (مجالس المديرىات) ومجلس شورى القوانين، والجمعية العمومية بإعطاء هذه المجالس صلاحيات تشريعية وحق مراقبة أعمال إدارات الحكومة، وضرب أمثلة عديدة لما يمكن أن تحققه هذه الإصلاحات من وضع الأمة المصرية على بداية الطريق إلى الحياة الدستورية.

وفى المدخل الخاص بالوزارة" مرتبط بسابقه، ضم عدداً من المقالات التى حدد فيها احمد لطفى السيد الوضع الدستورى للوزارة، فيستقل الوزراء فى إدارة أمور وزاراتهم عن الخديوى والمستشارين الإنجليز، بحيث تكون مسئولية الوزارة عن إدارة أمور البلاد مسئولية جماعية لا رقيب عليها إلا المجلس النيابى، ونعى على الوزارة أسلوبها فى الحكم الذى يجعلها أداة فى يد المستشارين الإنجليز، وتهربهم من إيضاح أعمال الوزارة أمام مجلس شورى القوانين، وحمل المجلس على تأييد ما تقترحه الوزارة من قوانين دون دراسة، وطالب الوزارة بان تجيب الأمة إلى مطالبها الدستورية حتى تحظى بثقتها.

وتناول لطفى السيد فى المدخل الأخير " النظام السياسى " والحق أن العنوان لا يدل دلالة دقيقة على محتوى المقالين اللذين نشرا تحته، فهما يختصان بانتقاد الطريقة التى يمارس بها الموظفون عملهم، وينتقد السياسة الإدارية بشكل عام التى تعتمد على الموظفين الأجانب بالدرجة الأولى، ولا تفسح المجال للأكفاء من المصريين لينالوا حقهم فى المشاركة فى تدبير أمور بلادهم، وطالب احمد لطفى السيد فى المقالين بان تكون الكفاءة وحدها هى معيار الاختيار وان يفسح المجال أمام الموظفين المصريين لشغل الوظائف الرئيسية، وأعطى أمثلة كثيرة للتفريق غى المعاملة بين المصريين والأجانب فى الإدارة والقضاء.

وهكذا وضع إسماعيل مظهر بين أيدينا هذا الملف المهم الذى يجمع مقالات احمد لطفى السيد فيما بين 1907 - 1909، تلك المقالات التى تعكس رؤية فصيل هام من فصائل الحركة السياسية المصرية فى مرحلة من أدق مراحل تطورها، قدر له أن يحظى بقبول عام عند نهاية الحرب العالمية الأولى، فلا شك أن "الوفد" الذى حمل لواء ثورة 1919 خرج من عباءة حزب الأمة، وعبر عن نهجه السياسى الذى يسعى إلى تحقيق الاستقلال بالتدريج.